كتابك ١٥٧
رئيس التحرير أنيس منصور

على النجدى ناصف

تاريخ النحو

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

أقدم فى هذه الصفحات المعدودة موجزًا لتاريخ النحو العربى فى نشأته وتطوره ، وعوامل التأثير فيه ، وأشهر علمائه الذين حملوا أمانته ، فحفظوها ، وأدوها أحسن الأداء ، وأحقه بالإعجاب .

ومجال القول فى تاريخ النحو العربى ذو سعة لمن أراد الإفاضة فيه والانطلاق : فهو أول عِلم دُوّن فى الإسلام ؛ إذ مضى على مولده قرابة أربعة عشر قرناً لم يكن فيها لَقى مهملاً ، ولا نَسياً منسيًّا ، ولكن تتابعت عليه أجيال من العلماء الجادّين ، يتّفقون قصدًا وغاية ، وإن اختلفوا وطناً وجنساً ، وشخصية ومنهج تفكير .

وكان فيهم علماء أفذاذ ، آتاهم الله ما يشاء من الكفاية وفَضْل المزية ، وإنّ كلاًّ من هؤلاء وهؤلاء ليبذل فيه كل ما يفتح الله به عليه ، وما تهديه تجربته إليه ، ويصوره خياله له فى الجانب أو الجوانب التى طاب له أن يتناوله منها ، فكانت لنا هذه الثروة الضخمة النفيسة ، من مؤلفاته المتعددة الموضوعات والأحجام .

ولم يكن إذ ذاك تخصص فى العلوم ، ولكنها كانت شَرِكة بين طلابها جميعاً ، فهم يتواردون عليها كلها ، أو على جملة صالحة منها ، ثم يغلب على كلٍّ ما يغلب عليه منها ، وكان النحو خاصة لا يطلب هَوْناً ، أو يُترك استغناء إيماناً صادقاً بحاجة كل ذى علم إليه ، فهو مِعيار اللغة ، ومفتاح سرها ، ووسيلة الفهم عنها .

من أجل ذلك لم يكتف جمهورهم بعلم ما فيه الكفاية منه ، ولكنهم توسعوا فيه ، وشاركوا المنقطعين له فى الرأى والتأليف .

وإذا كان بسط التاريخ أقدر على الاستيعاب والتبيين من إيجازه — فإن الإيجاز أقدر منه على الجمع والتقريب ، لأنه اختيار وانتقاء . ولكلٍّ مقام مقال كما يقولون . وقد جهَدت ما استطعت ألا أدع شيئاً مما بدا لى أنه حقيق بالذكر إلا جئت به فى نطاقه المحدود .

وعسى أن يكون فى ذلك بلوغ غاية ، وإدراك حاجة ، إن شاء الله تعالى .

على النجدى ناصف

أولية النحو

النحو نوعان : بَصْرى ، وكوفى . والبصرى أسبق وجوداً من الكوفى ، وإليه يُرَدّ وضع النحو ، ما فى ذلك خلاف ولا مراء ، فمن حقه علينا أن نبدأ به . والحديث عنه ذو شقين : الأول عن بيئة النحو والآخر عن واضعه .

بيئته :

نشأ النحو فى البصرة ، وما كان له أن ينشأ فى غيرها : فهى المدينة التى اشتدت فيها الحاجة إليه قبل غيرها ، إذ لم تكد تُمصَّر . ويتسامع الناس بها وبوفرة الخيرات فيها حتى انثالت إليها أفواج من العرب ، وأخرى من العجم .

وتوالت الهجرة إليها على تعاقب وازدياد ، حتى بلغت عِدّة مقاتلتها أيام كان زياد والياً عليها — ثمانين ألفاً ، وبلغت عدة عيالهم مائة وعشرين ألفاً [1] ، وكان تمصيرها سنة ١٤ ، وولاية زياد سنة ٤٥ فكل ما بينهما نحو ثلاثين عاماً .

وعاش أهل البصرة من العرب والعجم كما يعيش أهل الوطن الواحد

(١) البيان والتبيين : ٢/١٣٠ .

من أصول مختلفة ، تجمعهم أواصره ، وتدعوهم دواعى العيش فيه إلى التفاهم والمعاملة ، ولا يمكن أن يتم تفاهم ، وتتيسر معاملة إلا باللغة ، فلم يكن بد لهذه الأخلاط من اصطناع لغة واحدة ، إلى جانب لغاتها المتعددة . فكانت العربية هى هذه اللغة ، لأنها لغة الدولة القائمة ، ولسانها الرسمى ، وهيهات أن تستطيع الجاليات الأجنبية إتقان الفصحى والتحدث بها ، كما يتقنها ويتحدث بها العرب الخلّص .

لذلك أصبحت العربية عربيتين : فصيحة يصطنعها العرب ، وأخرى يشوبها قليل أو كثير من اللحن والتحريف ، يتحدث بها المستعربون فى الحياة العامة ، على أن اللحن والتحريف كانا يشوبان لغة العرب أو بعضهم أيضاً ، ولكن بمقدار ، وعلى تفاوت واختلاف :

فقد رووا أن عمر — رضى الله عنه — جاءه كتاب من عامله على ميسان ، وقد لحن كاتبه فيه ، فكتب عمر إلى العامل : أن قنع كاتبك سوطا[1] !

وشىء آخر يؤيد ظهور النحو فى البصرة ، وهو : أن الإمام عليًّا ، وعبد الله بن عباس ، وأبا الأسود الدؤلى — كانوا يقيمون بالبصرة ، سبق إليها أبو الأسود ، وجاءها الإمام وابن عباس أيام الفتنة الكبرى ، ويتنازع الرواة نسبة وضع النحو إلى ثلاثتهم فى كثير من الروايات . ومعقول أن يكون وضع النحو إبان هذه الحقبة ، إذ كان خِلاّط العرب

(١) البيان والتبيين : ٢ / ٢١٧ .

والعجم حينئذ أشد ، واللحن فى العربية أكثر ، والحاجة إلى النحو آكد .

وقد كان عمر – رضى الله عنه – ملهماً حين كتب إلى أبى موسى الأشعرى فى ولايته على البصرة أن يكل إلى أبى الأسود تعليم الإعراب [١]

واضع النحو :

وردت روايات شتى عن واضع النحو ، تتحدث عنه من جوانبه المختلفة . تتحدث عن سبب وضعه ، وعن واضعه ، وعما وضع منه أول الأمر . فأما سبب وضعه فظهور اللحن ، واستفحال خطره على مر الأيام .

وكانت العرب تمقت اللحن أشد المقت ، وتراه منقصة تزرى بصاحبها ، لا فى مطلع الإسلام فحسب ، ولكن فيما تلاه كذلك إلى أمد بعيد ، وكانوا لا يسكتون عن لحنة تعرض ، بل لا يقرون على شك منها ، لا فى قول يقال ، ولا فى نص يروى .

فقد حدثوا أن جارية غنت فى مجلس الواثق بقول الشاعر[٢] :

---

(١) فتوح البلدان : ٣٨٤ والإصابة رقم : ٤٩٦٣.

(٢) هو العرجى فى درة الغواص : ٤٣ ، والحارث المخزومى فى الخزانة : ١/٢١٧ وانظر إنباه الرواة : الصلب والحاشية : ١/٢٤٩.

أظلوم إن مصابكم رجلاً ‌‌ ‌ أهدى السلام تحية ظلم

فأنكر عليها بعض أهل المجلس أن نصبت (رجلاً) فى البيت ، بظن أنه خبر إن ، فالوجه رفعه : والصواب أنه مفعول به للمصدر مصاب ؛ لأنه بمعنى إصابة ، وأبت الجارية أن تغير الضبط ، وقالت : إنها قرأته هكذا على أبى عثمان المازنى ، فاستقدم الخليفة المازنى من البصرة ، فأيد رواية النصب وشرح وجهه .

وقد وردت روايات كثيرة تعزو وضع النحو إلى أبى الأسود ، بلا خلاف بينها ، إلا فى سبب وضعه والمضىّ فيه : أكان إحساساً بضرورته . أم كان إشارة من عمر[١] . أم من الإمام على[٢] . أم من زياد[٣] ؟ .

ويبدو أن الأمر شُبه على القائلين بإشارة عمر ، وإشارة زياد ، فحَسِب الأولون أن عهد عمر إلى أبى الأسود فى تعليم الإعراب — يعنى إشارة بوضع النحو ، وحَسِب الآخرون أن نقط أبى الأسود للمصحف فى عهد زياد هو الإشارة بوضعه . أما القائلون بإشارة الإمام على فلم يُبعدوا ، لأن أبا الأسود كان من أخص شيعته المقربين ؛ فمن الطبيعى أن يكون على صلة مَّا بنحو أبى الأسود ، إشارة به ، أو إرشاداً فيه .

---

(١) نزهة الألبا : ٧ — ٩.

(٢) طبقات القراء : ١ / ٣٤٥.

(٣) مراتب النحويين : ٩ .

ويُروى أن واضع النحو هو الإمام نفسه ، وأن أبا الأسود أخذه عنه[١] . ولا يتعاظم الإمام أن يضع النحو لو أراده ، فعبقريته لا خلاف عليها ، لكن الأعباء التي كان يضطلع بها أثقل من أن تتيح له التفكير في ذلك ؛ إذ كان — كرم الله وجهه — موزَّع الجهد والفكر لتثبيت دعائم الدولة ، وإقامة أحكام الدين ، وتدبير شئون الرعية ، وإحباط المكايد .

وفي أخبار أبي الأسود شواهد تدل على أنه كان — كما توسم فيه عمر — صاحب حس لغوي مرهف ، يستطيع به تمييز الأساليب بعضها من بعض ، وإدراك ما يكون بينها من أوجه الخلاف والمشابهة ، وما يكون لذلك من أثر في المعنى صحة وفساداً .

فقد رووا أن أصهاره من بني قشير كانوا يعلمون مبلغ حبه وإخلاصه للإمام علي . وأنهم كانوا — إغاظة له — ينالون من الإمام بحضرته ، فقال في ذلك قصيدة ينكر إساءتهم له ، ويؤكد وفاءه بالعهد وإخلاصه للعقيدة ، ومنها في آل البيت :

أُحب محمداً حبًّا شديداً وعباساً وحمزة والوصيّا
بَنِى عمِّ النبي وأقربيه أحبُّ الناس كلهم إليّا
فإن يك حبهم رشداً أُصِبْه ولست بمخطئٍ إن كان غيّا

فقالت بنو قشير : شككت يا أبا الأسود في صاحبك حيث تقول :

فإن يك حبهم رشداً أصبه .

(١) إنباه الرواة : ١/٥ .

فقال أبو الأسود : أما سمعتم قول الله عز وجل: (وإنَّا أوْإيَّاكم لَعلى هُدى أو فى ضلالٍ مبين)[١]. فأبو الأسود يعلم من أسرار البيان مالا يعلمون ، وأحالهم فى الحِجاج على الآية لعلهم يفهمون أن الكلام قد يكون فى ظاهره شكاً ، وما هو فى حقيقته بشك ، ولكنها التورية اللطيفة يُصار إليها أحياناً .

ويصف أبو الأسود مبلغ حسه اللغوى من الرقة وصدق التمييز ، فيقول : إنى لأجد للحن غَمَرًا كغمر اللحم[٢] .

ويذكر ابن النديم أنه رأى أربع ورقات يحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود — رحمة الله عليه — بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوى ، وتحت هذا الخط النضر بن شميل[٣] . وهذا كلام رجل ثقة لا يحدث بما سمع ، ولكن بما رآه رأى العين .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أبا الأسود كان على صلة بالسريانية ، والأرجح أنه قد تعلمها[٤] ، ورأى آخر : أن يعقوب

---

(١) الأغانى : ١١٢/١١ ، ١١٣ ، والآية فى سورة سبأ : ٢٤ .

(٢) طبقات النحويين : ١٥ ، والغمر ، بالتحريك : الدسم وزهومة اللحم .

(٣) الفهرست : ٦٠ ، ٦١ .

(٤) اللغة والنحو : ٢٥٠ ، ٢٥١ .

الرهاوى كان معاصراً لأبى الأسود ، وأن له كتاباً فى نحو السريانية(١) .
وكلا المقولين يشعر بأن النحو العربى ليس عربيًّا صريحاً ، وأن أبا الأسود قد أفاد له من السريانية على نحو مَّا ! وهو كلام يقوم – كما ترى – على مجرد الظن ، ويكثر ترداد مثله كلما ذُكرت أوليات علوم العرب ، كأنما كُتب عليهم من بين خلق الله أن يكونوا أبداً تلاميذ لغيرهم فى العلوم ، وهو كلام يمكن قبوله والتسليم به حين يكون له سند غير الحدس والتخمين .

وتقتضى طبيعة الأشياء أن يكون ما وضعه أبو الأسود من النحو مجرد ملاحظات يسيرة ، هُدِىَ إليها بالنظر فى الأساليب واستقرائها على قدر الطاقة فى المقامات المتنوعة ، وتيسر له بفضلها أن يستنبط منها ضوابط لا تبلغ مبلغ القواعد التى تقرر الأحكام فى اطّراد وشمول .

ومن يكن مثل أبى الأسود فى سلامة الفطرة وفطنة الحس لا يستعصى عليه أن يهتدى إلى هذه الأوليات وزيادة . وما كان الخليفة عمر ليختاره معلِّما للإعراب إلا وهو صالح له ، وكاف فيه ! وقد كانت العرب أو أناس منها يدركون فروق المعانى المختلفة فى العبارات التى تختلف فيها حركات الإعراب أو طرائق التعبير تقديماً وتأخيراً ، وذكراً وحذفاً .

ومن ذلك أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : (. . . أَنَّ اللهَ برىءٌ من المشركين ورسوله)(٢) بجر لام رسوله ، فقال الأعرابى : أو برئ اللهُ

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٤٨/٧ . (٢) التوبة /٣ .

من رسوله[١] ؟ . ويقول سيبويه ، فيما يقول : ليس من العصبية إذن ولا من التجني على الحقيقة أن نقول مع القائلين : إن النحو العربي عربي النسب ، وما هو بالدخيل ولا الهجين .

---

(١) صبح الأعشى : ١/ ١٢٩ .

النحو وأشهر النحاة

من أبي الأسود إلى سيبويه

لم يكد أبو الأسود يضع النحو . ويعلم الناس نبأه عنه حتى أقبل تلاميذه عليه . يأخذون عنه ، ثم يأخذ تلاميذهم عنهم من بعده . وهكذا جعل النحاة يتتابعون مع الأيام طبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين ، وجعَل النحو ينمو غرسه ، ويشتد عوده دراكاً عصراً بعد عصر . حتى كأن القوم قد أعدهم الله له من قبل على أفضل ما يكون الإعداد ، فما بهم إلا أن تومض وَمضة البدء ، وتشير إشارة التوجيه ليمضوا به خفافاً ، فإذا هم بعد قليل قد طَوَوا به شوطاً بعيداً لم يكن ليبلغه لولا العمل الدائب والجهد المتصل .

فهذا بلال بن أبي بردة والى البصرة يدعو إلى مجلسه عبد الله ابن أبي إسحق وأبا عمرو بن العلاء ، وهما من روّاد النحاة ؛ ليتناظرا بين يديه . ثم يقول أبو عمرو عما انتهت إليه المناظرة : «فغلبني ابن أبي إسحق بالهمز»[1] فقد اتسع ميدان النحو يومئذ حتى سمح لهذين العالمين الجليلين أن يتجاولا فيه جولات متكاملة ، يتحقق بها الغلب

---

(١) طبقات النحويين : ٢٥ .

والهزيمة ، ولم يكن مضى على ظهوره إلا قرابة أربعين عاما ؛ إذ كانت وفاة أبي الأسود سنة ٦٩ ، وولاية بلال سنة ١٠٩ .

وسنترجم هنا أبا الأسود ، وأشهر النحاة الذين جاءوا من بعده إلى سيبويه بترتيب سني الوفاة :

١- أبو الأسود :

المشهور أن اسمه ظالم بن عمر[١] ، يرتفع نسبه إلى الدئل بن بكر ، وإليه ينسب ، ولد بمكة ، ورحل إلى المدينة ، فروى عن عمر ، وقرأ على عثمان وعلي[٢] ، ثم أشخصه عمر إلى البصرة في ولاية أبي موسى الأشعري ليعلم الناس الإعراب[٣] . وولاه الإمام قضاء البصرة ، ثم جعله والياً عليها بعد ابن عباس حين خرج إلى مكة مغاضباً للإمام[٤] . وتوفي أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ .

وكان – رحمه الله – من أوفى الشيعة للإمام ، وأشدهم إخلاصاً له ، وهو الذي وضع النحو ، وضبط المصحف الشريف . ومن

---

(١) الأنساب : ٢٣٣ ، وتاريخ ابن عساكر : ٤٨٨/١٨ .

(٢) طبقات القراء : ٣٤٦/١ .

(٣) إنباه الرواة : ١٦/١ .

(٤) طبقات ابن سعد : ٧ ، والإصابة : ٣٠٤/٣ ، وإنباه الرواة : ٣٨٠/١ .

قراءاته : (أَلَاَ إنهم تَثْنَوِى صدورُهم) و (هَيْتِ لك)[١] .

ومن الذين أخذوا عنه يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ولسنا نعرف عن نحوهم شيئًا . ولا نجد لهم ذكرًا فى كتاب سيبويه ، ولا عنهم رواية فيه .

٢ — عبد الله بن أبى إسحاق :

هو عبد الله بن أبى إسحاق الحَضْرمى ، أخذ عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، ويقولون : إنه فرّع النحو ، وأعمل القياس فيه ، ودرس الهمز ، وله فيه كتاب . وتوفى سنة ١١٧[٢] .

ومن تقول سيبويه عنه : أنه كان يقرأ آية (ياليتنا نُرَد ولا نُكَذِّبَ بآيات ربنا) الأنعام/٢٧ بنصب نكذب .

٣ — أبو عمرو بن العلاء :

اسمه كنيته على المشهور ، وقيل : اسمه زيان ، ولد بمكة سنة ٦٨ ، ونشأ فى البصرة ، وأخذ عن عبد الله بن أبى إسحاق ، ويحيى بن يعمر ، وقرأ على أنس بن مالك ، والحسن البصرى .

---

(١) المحتسب ٣١٨/٢ ، ٣٣٧ والأولى من سورة هود من آية (٥) والأخرى من سورة يوسف من آية (٢٣) .

(٢) مراتب النحويين : ١٢ ، وإنباه الرواة : ٢٠٧/١ .

وهو من القراء السبعة ، وكان إمام أهل البصرة فى القراءات والنحو واللغة وأيام العرب والشعر ، مع الصدق والثقة والزهد ، وكان من أشراف العرب ووجهائها . وتوفى سنة ١٥٤[١] .

ونقل عنه سيبويه أكثر من أربعين نقلاً ، معظمها من طريق يونس ابن حبيب ؛ ومنها : قوله عن المستثنى بإلا حين يكون الكلام تاماً منفياً : الوجه ما أتانى القوم إلا عبدُ الله . ولو كان هذا بمنزلة أتانى القوم ما جاز أن تقول : ما أتانى أحد ، كما أنه لا يجوز أتانى أحد[٢] .

وقوله : واعلم أن ما كان صفة للمعرفة لا يحسن أن يكون حالاً ينتصب انتصاب النكرة[٣] .

٤ – الخليل :

هو الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى . ولد سنة ١٠٠ ، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وغيرهما ، وخرج إلى البادية يشافه أهلها ، ويأخذ عنهم اللغة ؛ ويُعَد الخليل من أفذاذ التاريخ ، وأصحاب الأوليات فى العلوم .

آتاه الله حسًّا لغويًّا مدرَّباً ، وذهناً رياضيًّا بارعاً ، وذوقاً موسيقيا

---

(١) مراتب النحويين : ١٣ ، وطبقات النحويين : ٢٨ ، وطبقات القراء : ١/٢٨٨ .

(٢) الكتاب : ١/٣٦٠ .

(٣) الكتاب : ١/٣٦٠ .

مرهفاً ، فبلغ الغاية في النحو ، واخترع العروض وخرج به على الناس علماً كاملاً ، كما اخترع طريقة تدوين المعاجم ، واستنبط من النحو في أصوله وفروعه وعلله وأقيسته مالم يسبقه إليه سابق . ونقل عنه سيبويه أكثر من خمسمائة نقل . وكان – رحمه الله – عفيفاً زاهداً متقشفاً ، قضى حياته منقطعاً للعلم والتعليم ، وتوفي سنة ١٧٥ [١] .

٥– يونس بن حبيب :

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي ، ولد سنة ٩٠ ، وأخذ عن أبي عمرو ، ويقولون : إنه كان صاحب قياس في النحو ، وله مذاهب تفرد بها . وقد نقل عنه سيبويه نحو مائتي نقل . وأكثر ما نقل عنه بابان من التصغير ، فقال : وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب ، وما أذكره لك في الباب الذي يليه قول يونس [٢] . وتوفي سنة ١٨٢ .

ومما نقل عنه قوله : « وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمدُ للهِ ربَّ العالمين) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية » [٣] وقوله : « ومن ذلك قول العرب : من أنت زيداً ؟ فزعم يونس أنه على قوله : من أنت

---

(١) مراتب النحويين : ٢٧ – ٤١ ، وطبقات النحويين ٤٣ – ٤٧ ، وإنباه الرواة : ٣٤/١ – ٤٧ .

(٢) الكتاب : ١٠٩/٢ . ونشأة النحو : ٨١ .

(٣) الكتاب : ٢٤٨/١ .

تذكر زيداً ، ولكنه كثر فى كلامهم ، واستُعمل واستغنَوا عن إظهاره (١) .

٦ – سيبويه :

هو عمرو بن عثمان بن قَنْبر . وسيبويه لقبه الذى لا يكاد يُذكر أو يُعرف إلا به . ولد بالبيضاء إحدى مدن فارس ، ونشأ وأقام بالبصرة ، وأخذ عن الخليل ، وأطال ملازمته ، وكان أحب تلاميذه إليه . وأخذ كذلك عن عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، وغيرهما . وهو صاحب أعظم كتاب فى النحو ، وأبقاه على الأيام . وتوفى سنة ١٨٠ (٢) .

كتاب سيبويه : لم يُسمِّ سيبويه كتابه ، ولا جَعل له مقدمة ولا خاتمة ، ولعله كان على نية العود إليه لبعض الأمر ، لكن عائقاً حال دون ما كان ينويه ، ومن قبل سمّى عيسى بن عمر كتابين له ، أحدهما الإكمال ، والآخر الجامع .

على أن القدماء سموه عنه ، إذ أطلقوا عليه اسم الكتاب غير موصوف بوصف ، ولا معين بإضافة ، فكان إذا ذُكر لفظ الكتاب مجرَّداً فهو كتاب سيبويه ، كأنما هو وحده الكتاب على الحقيقة ،

---

(١) الكتاب : ١/١٤٧ .

(٢) مراتب النحويين : ٦٥ وطبقات النحويين : ٦٦ . وإنباه الرواة : ٢/٣٤٦ .

وما سواه فكتاب على المجاز !

وسيبويه لا يقرر فى الكتاب قواعد ، ولا يشترط للأحكام شروطاً ، ولا يلتزم تعريف المصطلحات ، ولا ترديدها بلفظ واحد . وإنما الكتاب فيض غزير من الأساليب والمفردات . وبعض الأساليب مأثور ، وبعضه محدَث ، يعرضها سيبويه ليدرسها ويحللها ، ثم يَقضى قضاءه فيها صحة أو خطأ ، حُسْناً أو قبحاً ، كثرة أو قلة ، وهكذا .

وهو فى أثناء ذلك يعرض صنوفاً من سماعه ، وكثيراً من آراء شيوخه ، ولا سيما الخليل ، فينقدها ، أو يعلق عليها ، أو يجعل منها تماماً للمسألة التى يدرسها ، أو تأييداً لها ، وكذلك يزجى كثيراً من لغات العرب ، وفَيضاً من الشواهد المتنوعة ، بعضُها آيات من القرآن الكريم ، وعِدَّتها : ٣٧٣ ، ولا يفوته أن يذكر قراءاتها عند الحاجة إليها ، وبعضُها الآخر من الشعر ، وعِدَّتها ٨٧١ ، ومن الرجز ، وعدتها ١٩٠ ، ولا يفوته أن يصحح نسبة الشواهد التى يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها (١) .

تلك عدة شواهد سيبويه بحسب إحصائى لها وبعض شواهده من الشعر والرجز غير منسوب إلى قائليه ، لكن العلماء يثقون بشواهده كلها ، ويتقبلونها عنه بقبول حسن . وله شواهد من الأحاديث النبوية ، لكنه لا يذكرها بما يدل على أنها أحاديث ومنها :

---

(١) الكتاب : ١ /٣٣٦ .

١ – سُبُّوحا قُدُّوسا ربَّ الملائكةِ والرُّوح (١) .

٢ – ما مِنْ أيام أحبَّ إلى الله فيها الصومُ من عشر ذى الحِجة (٢) .

٣ – كلُّ مولود يُولَد على الفطرة ، حتى يكون أبواه هما يُهَوِّدانه ، ويُنَصِّرانه (٣) .

ويغلب على عبارة الكتاب التلاحم والانسياب ، حتى ليقل أن تمر فيها بمقطع يحسن الوقف عليه إلا حين يصرف القول عن وجهه إلى شاهد يرويه ، أو سؤال يسأله ، أو حوار يُديره . وهى واضحة بينة حيناً ، وغامضة مبهَمة حيناً آخر . ولا يلتزم الذهاب بها إلى معناها قصداً ، فربما طاب له الاستطراد إلى غير ما يكون فيه من مقام كاستطراده من القول فى الاشتغال إلى القول فى صيغ المبالغة (٤) .

ولا يكتفى سيبويه بواقع النصوص فى استنباط الأحكام ، ولكنه يلجأ أحياناً إلى فرض الفروض ثم يشرِّع لها إكمالاً لصور عقلية تتمثل فى ذهنه ، أو تداركاً لما فات النصوص أن تلم به .

كذلك لا يقتصر على مسائل النحو والصرف ، بل يزيد عليهما مباحث قيِّمة رآها موصولة الأسباب بهما ، ونقَلها العلماء من بعده إلى

---

(١) الكتاب : ١٦٤/١ ، والحديث فى صحيح مسلم : ٥١/٢ .

(٢) الكتاب : ٣٢/١ ، والحديث فى الجامع الصغير بشرح السراج المنير : ٢٥٥/٣ .

(٣) الكتاب : ٣٩٦/١ ، والحديث فى التجريد الصريح : ٩٣/١ .

(٤) الكتاب : ٥٦/١ .

علوم أخرى . ونكتفى هنا ببيان مواطن بعض هذه المباحث من الكتاب ، ومواطنها من الكتب التى نقلت إليها ، وليست من كتب النحو والصرف .

لقد نقل عبد القاهر إلى أسرار البلاغة[١] من باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى[٢] ، ونقل ، إلى دلائل الإعجاز[٣] من باب من النكرة يجرى مجرى ما فيه الألف واللام[٤] ، ومن باب ما يحسن عليه السكوت[٥] .

ونقل الثعالبى إلى أسرار العربية[٦] من باب مجارى أواخر الكلم من العربية[٧] ، وباب الحروف التى يجوز أن يليها بعدها الأسماء[٨] . . وباب ما لُفِظ به مما هو مثنى[٩] . . .

وتحدث سيبويه فى باب الإدغام حديثاً بارعاً عن حروف الهجاء

---

(١) أسرار البلاغة ، ٣٤١ .

(٢) الكتاب : ١/١٠٨ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٣٣ ، ٢٤٧

(٤) الكتاب : ١/١٦٦ .

(٥) الكتاب : ١/٢٨٤ .

(٦) أسرار العربية : ٣٢٢ .

(٧) الكتاب : ١/٧ وما بعدها .

(٨) الكتاب : ١/٤٦٠ .

(٩) الكتاب : ٢/٢٠١ .

وعددها ، أصولاً وفروعاً ، وعن مخارجها وأنواعها ، من مجهور ومهموس وشديد ورخو[١] . . .

ونلاحظ أن سيبويه لم ينقل عن شيوخه فى هذه الأبواب التى ذكرناها : فهل علينا إذا قلنا : إن سيبويه هو واضع البلاغة والتجويد [٢] ؟ .

وسيبويه بعد هذا يشقق الموضوعات المتشعبة ، ويفرقها على عدة أبواب : فعرض الاستثناء فى سبعة عشر باباً [٣] ، والترخيم فى اثنى عشر[٤] . ثم هو يذكر بعض الأبواب فى غير المواقع التى تجانسها . فوضع القسم وحروفه بين التصغير ونونى التوكيد [٥] .

وبعد ، فلا تعرف العربية كتاباً حفل به الناس ، وأفادوا منه على تعاقب الأجيال ككتاب سيبويه . فقد ألفوا عنه كتباً ، وأداروا حوله دراسات لا تحصى كثرة .

ألفوا فى شرحه ، والتعليق عليه ، والتمهيد له ، وترتيب مسائله ، وحل مشكلاته ، وتوضيح غريبه وشرح شواهده ، وتجريد أحكامه .

---

(١) الكتاب : ٤٠٤/٢

(٢) تاريخ البلاغة والتعريف برجالها : ٤٣ .

(٣) الكتاب : ٣٥٩/١ .

(٤) الكتاب : ٣٣٢/١ وما بعدها .

(٥) الكتاب : ١٤٣/٢ ، وانظر سيبويه إمام النحاة : ٨٩ - ١٩٢ .

اختصروه ، واختلفوا فيه ما بين متعصب عليه ، ومتعصب له ، وانتصر لهؤلاء أنصار ومؤيدون ومنهم من انقطع له حتى حفظه أو أتقن فهمه وتخصص فيه .

ولم يقدر لسيبويه أن يقرأ الكتاب على أحد أو أن يقرأه عليه أحد ، وإنما قرأه الناس بعده على أبي الحسن الأخفش[١] : فقد ورث — رحمه الله — علم سيبويه ، وكان طريق الناس إليه ، كما حمل سيبويه علم الخليل ، وكان طريق الناس إليه .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٠ .

النحو وأشهر النحاة

فيما بين سيبويه وانقسام الدولة العباسية

لم يَشْقَ النحاة بعلاج النحو بعد أن جاءهم كتاب سيبويه . فقد يسّر لهم سبيله ، بما أصل من أصول ، واستخرج من كنوز ، وأقام من حُجج ، وقدّم من شواهد ، والتمس من علل . فلم يَدعْ لهم إلا أن يدرسوه ، ويروا رأيهم فيه نقداً وخلافاً ، أو مناصرة وتأييداً ، وإلا أن يستوحوه ويستمدوا لمصنفاتهم منه .

وهذا ما كان ، فإذا لنا منهم أصناف من الكتب ، أبْين طريقاً ، وأقوم تنسيقاً . وليست – مع ذلك – تخلو من رأى سديد ، أو حجة قاصدة ، أو علة ناهضة ، أو شاهد لا مَغْمز فيه . وليس ذلك منهم بالعمل القليل ، ولا هُو بالأمر اليسير ، فتلك غاية ما تقضى به داعية الحال ، وسنة التطور الذى أحدثه كتاب سيبويه فى عالم النحو والنحاة .

والآن هلم إلى طائفة من أشهر نحاة هذه الحقبة .

١ – الأخفش :

هو سعيد بن مَسعدة ، الملقّب بالأخفش ، أصله من مَنْبج ، ثم

سكن البصرة ، وأخذ عن سيبويه وكان يقول : ما وضع سيبويه شيئاً في كتابه إلا عرَضه علي . وكانت له مكانة رفيعة في النحو بين البصريين والكوفيين . قرأ النحو على سيبويه ، وهو وحده طريق الناس إلى كتابه ، توفي سنة ٢١٥ على التقريب (١) .

ومن مؤلفاته في النحو . كتاب المقاييس ، والاشتقاق . وله آراء منثورة في كتب النحو منها : أنه يُجيز جمع أسماء العدد ، ولا يجيز غيره أن يُجمع منها إلا المائة والألف (٢) .

٢ – المازني :

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية ، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش . وكان إماماً في اللغة ، وراوية واسع الرواية ، كما كان بارعاً في الحِجاج والمناظرة ، توفي سنة ٢٤٩ ، وقيل غير ذلك (٣) .

ومن كتبه : علل النحو ، وتفاسير كتاب سيبويه ، والتصريف ، وقد شرحه ابن جني ، وهو مطبوع . ومن آرائه النحوية أن جمع المؤنث يجب بناؤه على الفتح مع لا النافية للجنس (٤) .

---

(١) مراتب النحويين : ٦٨ ، وأخبار النحويين البصريين : ٥٠ ، وبغية الوعاة : ٥٩٠/١ .

(٢) الهمع : ٤٣/١ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٩٢ ، وبغية الوعاة : ٤٦٣/١ .

(٤) الهمع : ١٤٦/١ .

٣- المبرد :

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، ولد سنة ٢١٠ ، ونشأ بالبصرة ، سمع الكتاب من الجرْمي ، وأتمه على المازني . وكان إمام العربية في عصره ، توفي سنة ٢٨٦[١] .

ومن مؤلفاته : المقتضب ، وإعراب القرآن ، والكامل في فنون من اللغة والأدب والنحو . ومن آرائه في النحو : أن المصدر المؤول من أن ومعموليها بعد لو يعرب، فاعلاً لثبت محذوفاً[٢] .

٤- الزجاج :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجّاج ، كان أول أمره يخرط الزجاج ، ثم مال إلى طلب النحو ، فلزم المبرد يأخذ عنه ، ثم اتصل بالمكتفي ، وصار نديماً له ، وتوفي سنة ٣١٠[٣].

ومن كتبه : الاشتقاق ، وفعلْت وأفعلْت ، وشرح أبيات سيبويه . ومن آرائه النحوية : جواز إعمال لعل وكأن حين تتصل بهما ما[٤]

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٩٦ ، طبقات النحويين : ١٠٨ .
(٢) الهمع : ١/١٣٨ .
(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٨ ، وبغية الوعاة : ١/٤١١ .
(٤) الهمع : ١/١٤٣ .

النحو الكوفى وأشهر علمائه

بدأ اشتغال الكوفة بالنحو فى حياة الخليل : أى بعد وفاة أبى الأسود بنحو تسعين عاماً ، فقد كانت وفاته سنة ٦٩ ، وكانت الكوفة فى خلال هذه المدة عاكفة على القرآن الكريم : تقرؤه وتقرئه . وعلى الشعر ترويه وتتناشده ، ولذا كان فيها ثلاثة من القراء السبعة ، هم : عاصم المتوفى سنة ١٢٩ ، وحمزة المتوفى سنة ١٥٦ . والكسائى المتوفى سنة ١٨٦ ، وفى كل مصر قارئ واحد . أما النحو فكانت — على ما يبدو — قانعة منه بما يجيئها من البصرة ، ثم انتبهت إليه وشغلت به . وأشهر علمائها فيه :

١ — مُعاذ الهرّاء :

هو أبو مسلم معاذ الهرّاء ، نشأ بالكوفة ، وكان يبيع الثياب الهَرَوِيّة ، فعرف بها . أخذ عنه الكسائى والفراء ، ويقال : إنه أول من وضع التصريف . وتوفى سنة ١٨٧ [١] .

٢- الكسائى :

هو أبو الحسن على بن حمزة الكِسائى . إمام نحاة الكوفة ، وأحد

(١) الفهرست : ٩٦ ، وإنباه الرواة : ٢٨٨/٣ ، وبغية الوعاة : ٢٩٠/٢ .

القراء السبعة ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن الهرّاء ، والخليل . وأقرأه الأخفش كتاب سيبويه ، ورحل إلى البادية فحفظ كثيراً من اللغة ، وعهد إليه الرشيد فى تأديب الأمين والمأمون . توفى سنة ١٨٩ ، ومن كتبه : معانى القرآن ، ومختصر النحو ، ويُعد الكسائى إمام نحاة الكوفة [١] .

ومن آرائه النحوية : جواز إعمال اسم الفاعل وهو ماضي الزمن [٢] .

٣- الفَرّاء :

هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمىّ وُلد بالكوفة ، وأخذ عن الكسائى ، وعن يونس بن حبيب . وكان أبرع الكوفيين فى علمهم . وتوفى سنة ٢٠٧ [٣] .

ومن كتبه : معانى القرآن ، والمذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود . ومن آرائه النحوية : أن الاسم الذى بعد لولا ليس مبتدأ ، بل مرفوع بها ، لاستغنائه بها كما يرتفع الفاعل بالفعل [٤] .

---

(١) طبقات النحويين : ١٣٨ ، وطبقات القراء : ١/٥٣٥ .
(٢) شرح التصريح : ٢/٦٦ .
(٣) مراتب النحويين : ٨٦ ، وطبقات النحويين : ١٤٣ .
(٤) الهمع : ١/١٠٥ .

٤ – ثعلب :

هو أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، ولد سنة ٢٠٠ ، وأخذ عن محمد بن سلاّم الجُمَحي ، ومحمد بن زياد الأعرابي وغيرهما ، ودرَس كتب الكسائي والفراء ، وقرأ كتاب سيبويه على نفسه . وهو من أئمة الكوفيين في النحو ، ومات سنة ٢٩١ . ومن كتبه : اختلاف النحويين ، ومعاني القرآن ، وما ينصرف وما لا ينصرف[١] .

ومن آرائه : أنه إذا سُمي مذكر بمؤنث مجرّد من التاء فإن كان ثلاثيا منع من الصرف سواء أكان محرك الوسط كفَخِذ أم ساكنه كحَرْب[٢] .

---

(١) طبقات النحويين : ١٥٥ ، وإنباه الرواة : ١/١٣٨ ، وبغية الوعاة : ١/٣٩٦ .
(٢) شرح الأشموني : ٣/١٩٢ .

مدرستا البصرة والكوفة

نشأ النحو في البصرة . وأقبل علماؤها عليه . يتدارسونه طبقة بعد طبقة ، ويضيفون إلى ما بين أيديهم منه كل ما عسى أن يفتح الله عليهم به . أما أهل الكوفة فكانوا منقطعين للقرآن والشعر ، كما ذكرنا آنفاً ، حتى إذا كان منتصف القرن الثاني تقريباً — تبينوا أن البصرة قد عظُم قدرها ونبُه ذكر علمائها ، بفضل ما صنعوا ويصنعون للعربية — هنالك هبوا يحاولون أن ينافسوهم ، ليكون لهم من الفضل مثل مالهم .

ولما لم تكن لهم سابقة في النحو — لم يجدوا بدًّا من أن يتّجهوا إلى البصرة ، يطلبون فيها علم مالا يعلمون : فذهب إليها الكسائي فيمن ذهب ، وأخذ عن الخليل ويونس ، ثم قرأ عليه الأخفش كتاب سيبويه . واصطحب الفراء كتاب سيبويه حياته ، لا يكاد يفارقه .

كان نحو الكوفة إذن شعبة من نحو البصرة ، ثم تحوّل عنه في أصوله ، ومناهج درسه ، لاختلاف الأئمة هنا وهنالك في مصادر الرواية والرأي فيها ، ثم في سمات الشخصية وطرائق التفكير . فكان للنحو مدرسة في البصرة ، وأخرى في الكوفة . وقدّر لنحو البصرة أن يكون أكثر تداولاً ، وأخلد خلوداً .

وأهم الفروق التي بين المدرستين : أن شيوخ البصرة كانوا لا يروون

إلا عن العرب الخلّص الضاربين فى أعماق الصحراء ، ولا يقبلون الشاهد إلا إذا وثقوا به ؛ لهذا نرى سيبويه يردِّد لفظ الثقة ومشتقاته فيما يَروى وما يَسمع من الشواهد ، كأنما يريد أن يطمئن أصحابه إلى أنه آخذ على الطريقة التى يتوارثونها . بل لم يكن يفوته أن ينبه على المصنوع من الشواهد أيضاً[1] . أما الكوفيون فكانوا أقل تحرجاً فى الرواية ، وأكثر ترخّصاً فى الاستشهاد .

وأخرى : أن البصريين كانوا يقيمون قواعدهم على الأكثر فى اللغة ، ويأبون أن يتخذوا مادونه مصدراً لاستنباط ، ولا سنداً لرأى . أما ما يخالف الأكثر فربما أولوه بما يردّه إليه وربما عدوه من الضرورات التى لايصار إليها فى الاختيار ، وربما نحّوه جانباً ، وحكموا عليه بالشذوذ .

ويبدو أن أبا عمرو هو صاحب هذا الأصل : فقد سئل عما وضعه العربية : أيدخل فى كلام العرب كله ؟ قال : لا ، قيل له : فكيف صنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات[2] .

أما الكوفيون فكانوا يأخذون اللغة من حيثما وجدوها ، وكانوا كلما

---

(١) الكتاب : ١ : ٣٦ ، ١٥٣ .

(٢) طبقات النحويين : ٤٣ .

عرَض لهم شاهد قبِلوه . وولّدوا منه حكماً له ما لسائر الأحكام[١] . ومن أمثلة الفرق فى هذا بين المدرستين : أن البصريين لا يجيزون تقدم الفاعل على فعله . ولا يمنعهم منه قول الزبّاء :

ما للجِمال مشيُها وئيدَا أجَنْدَلا يحملن أم حديدَا ؟

لأنهم يعدونه من قبيل الضرورة . ويعربون (مشيها) مبتدأ حذف خبره ، وسدت الحال (وئيدًا) مسده . والتقدير : مشيها يظهر وئيدا . أما الكوفيون فقد أخذوا بالشاهد . وأجازوا تقديم الفاعل على فعله ، كما قدمت (مشيها) على (وئيدا)[٢] .

ولعل كثرة ممارسة الكوفيين للتلاوة والرواية هى التى أورثتهم الاعتداد بظاهر النص ، وتهيّب الهجوم عليه بالتأويل ، أو الإنكار . وهذا لا يعنى أن البصرة كانت أقل من الكوفة تحمُّلاً للقرآن ورواية للشعر ، فقد كان الذين يحفظون القرآن كله فى عهد أبى موسى الأشعرى زُهاء ثلثمائة[٣] . وكل ما كان من الأمر هنا وهناك — أن الكوفة آثرت العافية ، وقنعت بما حفظت ، واستمرأت الانقطاع للمعاودة والتكرار ، أما البصرة فقد أُتيح لها الحفظ ووضع النحو فظفرت بالحسنَيَيْن . ولم تجد البصرة حاجة إلى الأخذ عن الكوفة ، إلا أبا زيد ، فإنه — فيما يقال —

---

(١) الهمع : ١ : ٤٥ .

(٢) شرح ابن عقيل ، وحاشية الخضرى : ١ : ١٤٤ .

(٣) حلية الأولياء : ١ : ٢٥٧ .

أخذ عن المفضل الضبي[١]

ثم إن البصريين يقدمون السماع على القياس إذا تعارضا[٢] . أما الكوفيون فربما جعلوا كلمة القياس هي العليا وإن لم يعزّزه شاهد . فقد منعوا تقدم الخبر على المبتدأ مطلقاً ، لئلا يتقدم الضمير الذي فيه على مرجعه ، في قائم مثلا من قولنا : قائم زيد ضمير زيد . ولم يأبهوا لتأخر الخبر رتبة وإن تقدم لفظاً ، ولا للمأثور من الشواهد[٣] .

والآن هل للنحو مدارس أخرى ؟ ينبغي قبل الإجابة عن هذا السؤال أن أعرّف المدرسة . فهي : طائفة من العلماء ، أو الأدباء ، أو أهل الفن تؤلف بينهم في الإنتاج وصوره أصول ومناهج يلتزمونها ، مع احتفاظ كلٌّ بخصائص شخصيته .

وهكذا كان أئمة النحو الأولون في البصرة والكوفة إبان نشأته ، فخرج النحو الذي صدر عنهم صدى لما عند كل من الفريقين من مواهب . ولمَا أُصّل منَ أصول ، وما أمدته العرب به من لغة . ولمّا أن اشتد عوده ، ونضجت ثمرته ، وآل من بعدهم إلى خلفائهم — لم يجدوا به نقصاً فيتمّوه ، أو صدْعاً فيرْأبوه ، فلم يبق إلا أن ينظروا في النحويْن ، ويأخذوا لمصنفاتهم من كليهما أرْجَحه عندهم . ومنهم من

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٧ .

(٢) الخصائص : ١ : ١١٧ .

(٣) الإنصاف : ١/٦٥ .

جَعل النحو البصرى أصلاً ، وزاد عليه مادعت إليه الحاجة من النحو الكوف .

وهنا التق النحوان بين أيديهم ، على سواء فى الدرس والتمحيص ، واختلاف فى مقدار النقل والاقتباس من هذا وذاك تلفيقٌ للنحويْن أخذ النحاة به منذ القرن الثالث ، ولا يزال معمولاً به إلى اليوم ، فهل يصح أن نُطلق على أصحاب هذا التلفيق اسم مدارس ، فنقول مثلاً : مدرسة النحو البغدادية ، أو مدرسة النحو المصرية ، كما جاء فى كتاب المدارس النحوية ؟

يبق بعد هذا أن النحويين القدماء يردِّدون فى كتبهم آراء يعزونها إلى من يصفونهم بالبغداديين . وقد فَهم بعض الباحثين من هذا أن هؤلاء البغداديين يؤلفون مدرسة نحوية ثالثة ، لكن ثمة دلائل تدل على أن هؤلاء البغداديين هم الكوفيون الذين استقر المقام بهم فى بغداد ، لأن وصفهم بالكوفيين مدعاة إلى اللبس والتخليط :

فالأخفش يقول عن سيبويه مُنصرَفه من بغداد بعد مناظرته للكسائى : «وجّه إلىّ فجئته ، فعرفنى خبره مع البغدادى»[1] ، ومَن يكون هذا البغدادى ، إذا لم يكن هو الكسائى ؟ ويقول المبرد : ما رأيت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب يعقوب بن السكّيت فى

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٧١ .

المنطق[١] » ، وابن السكيت كوفي[٢] ويقول ابن جني : لو قال قائل : المبتدأ مرفوع بما يعود عليه من ذِكْر لقلت : « هذا قول الكوفيين » ، ثم عاد فكرر العبارة في موضع آخر ، فقال : « ومن ذلك قول البغداديين : إنما الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذِكره »[٣] .

ولئن كان نحو البصرة أحظى عند الناس — لقد كان نحو الكوفة أحظى عند الخلفاء ، إذ كانت الكوفة أقرب من البصرة إلى بغداد ، وفيها كانت البيعة للسفّاح ، ولبثت بعض الوقت حاضرة الدولة . أما البصرة فقد ظهر فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يدعو لأخيه محمد . وكان قد خرج بالمدينة فاستجاب لإبراهيم كثير من أهل البصرة ، فاستولى عليها وعلى ما قرب من واسط والأهواز[٤] .

لذلك اتيح للكوفيين أن يسبقوا إلى بغداد ، ففتح الخلفاء لهم أبوابهم ، ووكّلوا إليهم تأديب أولادهم . فكان الكسائي في حاشية الرشيد ، ثم مؤدب ولديه[٥] ، وكان الفراء مؤدب ولدى المأمون[٦] ،

---

(١) وفيات الأعيان : ٥ : ٤٣٨ .

(٢) الفهرست : ١٠٧ .

(٣) الخصائص : ١ : ٨ ، ١٩٩ .

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٣١ ، ٧٦ .

(٥) إنباه الرواة : ٢ : ٥٦ ، بغية الوعاة : ٢/١٦٣ .

(٦) بغية الوعاة : ٢ : ٣٤٩ .

وكان ابن السكيت ينادم المتوكل[1] ، فأعظمَ الناس نحاة الكوفة ، وأقبلت الدنيا عليهم . ولم يظفر البصريون الذين رحلوا إلى بغداد بمثل ما ظفر الكوفيون به ولا قريب منه ! فأخفق سيبويه فى مناظرة الكسائى ، واتخذ الكسائى الأخفش مؤدباً لأولاده[2] ، وكان المبرد يعلم الزجاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً أجراً له [3] .

(١) طبقات النحويين : ٢٢١ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٥٩٠ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٤١١

النحو وأشهر علمائه

بعد انقسام الدولة العباسية

ضعفت الدولة العباسية . وتزايلت بنيتها . فطمع ولاة الأقاليم فيها ، وأوهنوا صلتهم بها ، وكان آل بويه أجرأهم عليها ، فقد استقلوا بفارس والجزيرة . ثم استولوا على بغداد . وسلبوا الخليفة سلطانه سنة ٣٣٤ .

فنشأت دويلات هنا وهناك : وتعددت الحواضر فيها والأمصار . ولم تبق بغداد — كما كانت قبلة العلماء ومن إليهم . فقد كان حكام الدويلات يَجدّون فى تأثيل ملكهم . ويجتذبون العلماء والشعراء إليهم فقصدوهم وأقاموا فى ظلالهم قليلاً أو كثيراً . لذلك بقيت الحياة العلمية على قوتها ونشاطها ، بل لعلها زادت قوة على قوتها ونشاطاً على نشاطها .

أشهر نحاة شرق دجلة

١ — السيرافى :

هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى . ولد بسيراف . حوالى سنة ٢٨٨ ، وأخذ اللغة والنحو عن بعض علماء عصره . وكان عالماً حجة ، أميناً ديِّناً ورعاً . توفى ببغداد سنة ٣٦٨ .

ومن كتبه : شرح كتاب سيبويه ، والوقف والابتداء ، وأخبار النحويين البصريين[١] . وعنده أن كان الزائدة ترفع ضمير المصدر الذى تدل عليه فاعلاً لها[٢] .

٢ – الفارسى :

هو أبو على الحسن بن أحمد الفارسى . ولد بِفَسا مدينة قريبة من شيراز ، وأخذ عن ابن السراج وغيره . رحل إلى أقطار من الدولة ، وتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ . وله مصنفات كثيرة ، منها الإيضاح فى النحو ، والتكملة فى الصرف ، والحجة فى علل القراءات السبع[٣] .

ومن آرائه أن الأسماء الستة لا تعرب بالحروف . ولكن بحركات مقدرة عليها[٤] .

٣ – ابن جنى :

هو أبو الفتح عثمان بن جنى ، نشأ بالموصل ، واتصل بأبى على الفارسى ، يأخذ عنه ويستمليه ، وتوفى سنة ٣٩٢ . ومن مؤلفاته :

---

(١) إنباه الرواة : ١ : ٣١٣ ، وبغية الوعاة : ١ : ٥٠٧ .

(٢) الهمع : ١ : ١٢١ .

(٣) طبقات النحويين : ١٠٣ ، وإنباه الرواة : ١ : ٧٣ .

(٤) الهمع : ١ : ٣٨ .

الخصائص ، وشرح تصريف المازنى ، والمحتسب ، وهى مطبوعة ، وسر صناعة الإعراب ، وقد طبع منه جزء واحد[١] .

ومن آرائه النحوية : أن إذا الفجائية ظرف مكان[٢] .

٤ — الزمخشرى :

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، ولد بِزَمَخْشر سنة ٤٦٧ ورحل إلى خراسان والعراق ، وجاور بمكة المكرمة . وكان من أعلم الناس بالنحو واللغة والتفسير ، وغريب الحديث . وتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨

ومن كتبه : المفصل والنموذج فى النحو ، وأساس البلاغة فى اللغة ، والفائق فى غريب الحديث[٣] ومن آرائه : أن لن تفيد توكيد النفى وتأبيده[٤] .

---

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٣٣٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٣٢ .

(٢) الهمع : ١ : ٢٠٧ .

(٣) إنباه الرواة : ٣ : ٢٦٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ٢٧٩ .

(٤) المغنى : ١ : ١٢٤ .

النحو في مصر والشام وأشهر علمائه

شاء الله تعالى أن تكون مصر والشام صنوين . وكلما فرقت بينهما الأحداث عادت فجمعتهما على المودة والإخاء ، لذلك سأجمع تراجم أشهر النحاة فيهما ، كما تجمع تراجم أبناء الوطن الواحد .

١ — ابن بابشاذ :

هو أبو الحسن طاهر بن أحمد . أصله من العراق ، ونشأ بمصر ، وتصدر للإقراء في جامع عمرو بن العاص . ثم انقطع للعبادة ، وتوفي سنة ٤٩٦ .

ومن مؤلفاته شرح جمل الزجاجي ، والمحتسب في النحو[١] . ومن آرائه أن إذن تنصب الفعل مع الفصل بينها وبينه بالنداء ، والدعاء[٢] .

٢ — ابن مُعْطٍ :

هو أبو الحسن بن زين الدين ، ولد بحلب سنة ٥٥٣ ، ورحل إلى

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٩٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٧ .
(٢) المغني : ١ : ١٩ .

دمشق فأقرأ بها النحو وبمصر. وتوفى فى القاهرة سنة ٦٢٨.

وله ألفية فى النحو، وحواش على أصول ابن السراج، وكتب أخرى(١). ويختار من أحكام النحو أن ينوب الجار والمجرور عن الفاعل حين يجتمع هو والمصدر والظرف بعد فعل مبنى للمجهول(٢).

٣ – ابن يعيش:

هو موفق الدين بن على المشهور بابن يعيش. ولد بحلب سنة ٥٥٣، وأخذ عن علمائها، وكان بارعاً فى النحو والصرف. وتوفى بحلب سنة ٦٤٣.

ومن كتبه شرح التصريف لابن جنى، وشرح المفصل للزمخشرى(٣)، وهو يؤيد أن الفاء فى مثل: (قل إنَّ الموت الذى تَفرُّون منه فإنه مُلاقيكم) واقعة فى خبر إن لا زائدة(٤) وهى من سورة الجمعة من آية (٨).

---

(١) بغية الوعاة: ٢/٣٤٤، ونشأة النحو: ٢١٥.

(٢) الهمع: ١: ١٦٩.

(٣) بغية الوعاة: ١/٣٥١.

(٤) شرح المفصل: ١: ١٣٤.

٤ – ابن الحاجب :

هو عثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب ، ولد بإسنا حوالى سنة ٥٧٠ ، ونشأ بالقاهرة ، ولازم الأخذ عن العلماء ، وكان من أذكى الناس ، فنبغ فى علوم شتى ، وغلب عليه النحو ، وتوفى فى الإسكندرية سنة ٦٤٦ .

ومن مصنفاته : الكافية وشرحها فى النحو ، والشافية وشرحها فى الصرف ، والأمالى . وغيرها[١] . وعنده أنه يجوز أن يكون خبر أن المذكورة بعد لو اسما إذا كان جامدا[٢] .

٥ – ابن هشام :

هو عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصارى . ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨ ، وأتقن العربية حتى فاق أقرانه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦١ . وله مؤلفات كثيرة قيمة ، منها مغنى اللبيب . وأوضح المسالك ، وشذور الذهب وشرحه[٣] .

ويعد المغنى أبرع كتبه وأنفعها ، فقد ضمنه شرحاً وافياً لحروف

---

(١) بغية الوعاة : ٢ : ١٣٤ .

(٢) الهمع : ١ : ١٣٨ .

(٣) بغية الوعاة : ٢ : ٦٨ .

المعانى ، وأورد فيه كثيرًا من القضايا ، مقرونة بالآراء التى قيلت فيها . ثم مناقشة منصفة تؤيدها الشواهد والحجج ، وهو لا يجيز ذكر أو بعد سواء .

٦ – ابن عقيل :

هو أبو عبد الله بن محمد . أصله من همذان . ولد سنة ٦٩٨ ، وكان إماماً فى العربية . وتوفى سنة ٧٦٩ ، ومن كتبه شرح التسهيل ، وشرح ألفية ابن مالك[١] : وهو من أسهل كتب النحو وأشهرها .

٧ – الشيخ خالد الأزهرى :

هو خالد بن عبد الله ، ولد بجرجا ، ومهر فى النحو وعلوم اللغة . وأقرأ فى الأزهر ، وإليه ينسب . وتوفى سنة ٩٠٥ . ومن كتبه : شرح كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام ، والتصريح بمضمون التوضيح ، المشهور بشرح التصريح على التوضيح[٢] ، وهو أجل كتبه .

٨ – السيوطى :

هو عبد الرحمن جلال الدين بن أبى بكر. لازم أشياخه ، ينهل من

---

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٤٧ .

(٢) الكواكب السائرة : ١ : ١٨٨ ، وشذرات الذهب : ٨ : ٢٦ .

معارفهم حتى تضلع ريًّا . وانقطع للتصنيف ، فصنف قدراً عظيماً من الكتب فى مختلف العلوم ، وتوفى سنة ٩١١[١] .

وكتابه همع الهوامع من أنفس كتب النحو فى جمع المسائل ، واختلاف المذاهب ، واستيعاب الآراء ، ولا يخلو الكتاب من بعض الاختيارات ، ومن اختياره فى إعراب بحسبك درهم أن يكون بحسبك خبراً مقدماً ، ودرهم مبتدأ مؤخراً[٢] .

٩ – الأشمونى :

هو على نور الدين بن محمد من علماء عصره المعدودين . وأشهر كتبه منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك[٣] .

كتاب واسع الشهرة ، ينتهى كل باب فيه بخاتمة تتضمن حقائق لا تخلو من طرافة وفائدة .

١٠ – الصبان :

هو محمد بن على . ولد بالقاهرة ، وأخذ مختلف العلوم عن شيوخ عصره . وتوفى سنة ١٢٠٦[٤] .

ومن مؤلفاته حاشيته على شرح الأشمونى للألفية ، وهى أشهر حواشى النحو ، حافلة بالمنقول والتعقيبات والجدل والآراء .

---

(١) حسن المحاضرة : ١ : ١٨٨ .

(٢) الهمع : ١ : ٩٣ .

(٣) شذرات الذهب : ٨ : ١٦٥ .

(٤) تاريخ الجبرتى : ٢ : ٢٢٧ .

النحو فى الأندلس والمغرب وأشهر علمائها

كان السلف من علمائنا - يكثرون الارتحال إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، وخاصة العراق ، ليلقوا علماءها ، ويطّلعوا على ما عندهم من العلم ، ثم يعودوا بما جمعوا من كتب وماوعوا من علم.

وإذا كان ديدن العلماء الرحلة إلى البلاد البعيدة - فأولى أن تكون بين الأندلس والمغرب ، لكن يبدو أن أهل الأندلس كانوا أكثر ارتحالاً إلى المغرب من أهل المغرب إلى الأندلس.

وقد قيض الله للأندلس فى مطلع الدولة الأموية رواداً من العلماء ، وصلوها بالمشرق ، بما نقلوا إليها من كتب الشريعة والنحو.

وكان نحو الأندلس أقرب إلى نحو الكوفة ، لأن كتاب الكسائى كان أسبق إليهم[1] وكان الأندلسيون أهل قرآن كالكوفيين ، ولم يستطع كتاب سيبويه إذ جاءهم أن يعدّل من منهجهم كثيراً . فهذا ابن مالك أعظم نحاتهم - يوافق الكوفيين فى كثير من آرائهم ، ويكثر الاستشهاد بالحديث مالم يكثر غيره .

---

(١) طبقات النحويين : ٢٧٨ .

أشهر نحاة الأندلس والمغرب

١ – ابنَ مضاء :

هو أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء ، ولد بقرطبة سنة ٥١٣ ، وكان عارفاً بصنوف العلم ، ومات بإشبيلية سنة ٥٩٢ .

ومن مصنفاته : المشرق فى النحو ، والرد على النحاة[١] ، وقد أنكر نظرية العامل فيما أنكر فيه على النحاة ، وغلا فى ذلك غلوًّا كبيراً . وقد كان لنشر هذا الكتاب صدى قوىّ بين المشتغلين باللغة العربية ، فمنهم من تحمس له ، ومنهم من مقته وازورّ عنه .

٢ – الشلوبين :

هو عمر بن محمد المعروف بالشلوبين . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ ، وكان إمام عصره فى العربية ، فكثر الآخذون عنه . وتوفى سنة ٦٤٥ .

ومن مصنفاته : التوطئة فى النحو ، وتعليق على كتاب سيبويه[٢] . ومن آرائه أنّ ليس ولا تنفيان الأزمنة الثلاثة ، كما يقول قوم ، ولكنهما فى الأصل لنفى الحال مالم يكن الخبر مخصوصاً بزمان[٣] .

(١) بغية الوعاة : ١ : ٣٢٣ .
(٢) بغية الوعاة : ٢ : ٢٢٤ .
(٣) الهمع : ١ : ١١٥

٣ – ابن مالك :

هو محمد جمال الدين بن عبد الله . ولد بجيّان سنة ٦٠٠ ، وأخذ العربية عن غير واحد ، واعتمد على ذكائه فى تحصيل الكثير من علمه .

رحل إلى الشام ، وتنقل بين مدنه ، ثم استقر فى دمشق ، وتصدر للتدريس فيها حتى لقى ربه سنة ٦٧٢ . وله مصنفات كثيرة منها : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، والكافية الشافية ، وخلاصتها المعروفة بالألفية[١] ، وقد نالت شهرة واسعة بين كتب النحو عامة . وظفرت بعناية كثير من العلماء ، فشرحوها شروحا مختلفة ، حتى صارت لها السيطرة على دراسة النحو . ومن آرائه : وقوع (إذ) مفعولا به[٢] .

٤ – ابن آجرّوم :

هو محمد بن محمد الصّنهاجى ، ولد سنة ٦٧٢ ، وعاش بفاس ، وله مصنفات أشهرها : المقدمة المعروفة بالآجرّومية . وقد نفع الله بها كثيراً من طلاب العلم المبتدئين .

وتدل فيما يقول السيوطى على أن مؤلفها كان على مذهب الكوفيين فى النحو ، لأنه استعمل بعض مصطلحاتهم ، وتوفى سنة ٧٢٣[٣] .

---

(١) بغية الوعاة : ١ : ١٣٠ .

(٢) الهمع : ١ : ٢٠٤

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٢٣٨ .

٥ – أبو حيان :

هو محمد أثير الدين يوسف . ولد ببلد على مقربة من غرناطة سنة ٦٥٤ . وأخذ عن جمع كبير من علماء المشرق والمغرب . ونبغ في علوم كثيرة . وقد استقر في القاهرة بعد تجوال في بلاد مختلفة . وتصدر بها للتدريس .

ومن مؤلفاته : التذييل والتكميل في شرح التسهيل . وارتشاف الضرب من لسان العرب . وتفسير البحر المحيط . وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ [١] .

وكان يمنع الاستشهاد بالأحاديث . ولا يرضى عن الخلاف في المسائل النظرية التي لا جدوى منها في اللغة : كالخلاف في أصل المرفوعات والمنصوبات . فيقول : «وهذا الخلاف لا يجدي» [٢]

---

(١) المصدر السابق : ١ : ٢٨ . ونشأة النحو : ٢٦٦ .
(٢) الهمع : ١ : ٩٣

سيرة النحو

لم يكد أبو الأسود يبدأ وضع النحو ، ويكتب منه ما كتب ، ثم يعلّم الناس نبأه حتى أسرع إليه نفر من الطلاب يسمعون منه ، ويتتلمذون له ، ثم يقبل عليهم من بعد طلاب آخرون يصنعون صنيعهم هم مع أبي الأسود .

وهكذا تمضي المسيرة فوجاً بعد فوج ، كلما مضى فوج خلفه آخر ، على مدى نحو أربعة عشر قرناً . وما منهم إلا صانع للنحو صنيعاً ، أو مُضيفٌ إليه جديداً . كلٌّ على مقدار ما يتاح له ، ويفتح الله به عليه .

وكان عبد الله بن أبي إسحاق أول من ذكر الناس له عملاً في النحو بعد أبي الأسود ، فقالوا : إنه فرع النحو ، وقاسه ، وأملى كتابا في الهمز[1] ، والهمز حقيق أن يؤلف فيه كتاب ، فإن له في القراءات أحوالاً يتنقل بينها ، كما للاسم المعرب أحوال في الكلام يتنقل بينها أيضاً .

وقد مكّنت له حفاوته بالهمز والتأليف فيه أن يفوز به على أبي عمرو ابن العلاء في المناظرة التي دعاهما إليها بلال بن أبي بُردة ، إبان ولايته

---

(١) مراتب النحويين : ١٢ .

على البصرة[1] وإذن يمكن أن يقال : إن عبد الله بن أبي إسحاق هو أول من ألف كتابا فى الصرف . وكانت وفاته سنة ١١٧ .

وألف عيسى بن عمر كتابين فى النحو ، نوه بهما الخليل فى بيتين ، رددتهما كتب التراجم المختصة ، وهما :

ذهب النحو جميعا كلُّه غير ما أحدث عيسى بن عمرْ
ذاك إكمال ، وهذا جامع وهما للناس شمسٌ وقمر

واسم الكتاب الأول يدل على أنه أكمل نقصاً ، واسم الآخر يدل على أنه جمع متفرقاً . وفى هذا إشارة إلى أن النحو لعهد عيسى بن عمر كان قد قطع فى سبيل النمو شوطاً بعيداً . وكانت وفاة عيسى سنة ١٤٩ . وبقى الكتابان أو أحدهما إلى القرن الثالث ، فيذكر المبرد أنه قرأ أوراقاً من أحدهما ، فكان كالإشارة إلى الأصول[2] .

ثم جاء كتاب سيبويه ، فبهر الناس ، واستأثر بإعجابهم ، فقد رأوا منه قصرا منيفاً ، شامخ الأعالى ، لا يسع الناظر إليه ، ولا الداخل فيه ، إلا أن يسبح الله الذى خلق الخليل ، وجعله خازن ذخائره ، وخلق سيبويه ، وجعله مهندس بنيته .

إنه اللغة فى نحوها وصرفها وأصواتها ، بل فى أصول بلاغتها أيضاً ، وإنه النحو فى أحكامه وقضاياه ، وفى أقيسته وعلله ، وفى أصوله

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٢٦ .

(٢) مراتب النحويين : ٢٣ ، وطبقات النحويين : ٣٧ .

وفروعه ، وفى مناهجه وشواهده . لم يدَع من ذلك للذين جاءوا من بعده إلا يسيراً لا يحسب له حساب . والذين قالوا : إنه قرآن النحو لم يُبْعدوا ولم يسرفوا . لقد ملأ الدنيا علماً ونفخ فى الناس روحاً من البحث ماكانت لولاه لتكون .

وما نريد أن نَبخس فضل السابقين من سلَف سيبويه ، فقد أمده كثير منهم بقدر عظيم من الآراء والأحكام ، ولا سيما يونس بن حبيب ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء ، فكان لهم بذلك جهد مشكور فى صنع الكتاب . وفى ظهوره فجأة على هذه الصورة شاهد صدق على مبلغ الجد والإخلاص فى دراسة النحو وتنمية مادته ؛ فليس بين ظهوره وابتداء وضعه سوى قرن واحد ، يزيد قليلاً . ولكنها الهمة الكبرى والمطلب الجليل يصنعان العجب العجاب .

ولم يكُفَّ النحاة بعد سيبويه ، ولافَترت همتهم عن التأليف فى النحو ، فألفوا فيا يخطر منه بالبال ومالا يخطر ، لا تكاد تصرفهم عنه الفتن واضطراب الأحوال ، فكان من ذلك ثروة هائلة من كتبه ، تتخالف موضوعاً وحجماً ، ما بين مبسوط ، ووسيط ، ووجيز ، أكثرها فى النحو والصرف معاً ، وبعضها فى النحو خاصة أو الصرف خاصة .

وتنوعت عبارات الكتب ، فواضحة وغامضة ، ومجملة ومفصلة ، وقاصدة ومستطردة ، يشوبها قليل أو كثير من تجريد الفلسفة وصرامة المنطق . وماكان ممكناً أن يبرأ النحو منها ، فقد صارت لها الغلبة على

مناهج الدرس ومذاهب التفكير أيام ازدهار الحياة العلمية . فكان من أثرها أن غمضت العبارة قليلاً أو كثيراً . وخاصة فى كتب المشرق ، وبعض كتب العصور الأخيرة .

على أن لغموض العبارات أسباباً أخرى ، كإجداب القريحة . وضعف ملكة البيان . وقد كان المازنى ممن يصعب الفهم عنهم[١] . ومن العجيب أن يتعمد بعض النحويين الغموض ، بل أن يكون منهم من يعيب الوضوح . ويرى أن الأخذ به يُزرى بالنحو ، فقد قيل للأخفش : لِمَ لا تجعل كتبك مفهومة ؟ فقال : أنا رجل لم أضَع كتبى هذه لله . وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلىّ فيها . وإنما كانت غايتى المنالة[٢] .

وكان السيرافى معروفاً بوضوح العبارة ، فلما ألف كتابه الإقناع فى النحو لم يرقِ ابنه أن يكون على ما رأى من السهولة ، فكان يقول : «وضع والدى النحو فى الزبالة»[٣] !

هكذا كان النحو نشوءاً وارتقاء فى البصرة ثم الكوفة ، وهو ما يقضى به منطق الواقع . فلم يكن بجزيرة العرب ولا بالبلاد المفتوحة حاجة عاجلة إليه : فأما الجزيرة فوطن العرب والعربية ، وأما البلاد المفتوحة

---

(١) مراتب النحويين : ٧٨ .

(٢) الحيوان . ٩١/١ .

(٣) بغية الوعاة : ٥٠٨/١ .

فكان أهلها هم الكثرة الكاثرة ، وكان العرب وافدين عليهم ، وهم القلة القليلة ، ولم يكن الخلاط أول الأمر كثيراً ولا عاماً بين هؤلاء وهؤلاء ، وإنما كان بين الرءوس من الفريقين وعلى قدر الحاجة الماسة ، ومن اليسير أن تكون الترجمة إذ ذاك هي وسيلة التفاهم بينهما والخطاب . فلمن يوضع النحو إذن ، وما الحاجة الدافعة إلى المبادرة إليه ، والتفرغ له ، والتأليف فيه ؟ ومثل الفاتحين إذ ذاك في هذه البلاد ، كمثل البعثات السياسية التي تمثل دولها في دول أخرى في عصرنا ، أو تكاد .

من أجل ذلك تخلفت البلاد المفتوحة عن مواكبة مسيرة النحو في البصرة والكوفة . ولم يتهيأ لها أن تشارك فيها بالدراسة المتخصصة والتأليف الرفيع إلا حوالى القرن الثالث حين دعت الحاجة إلى شد أزر العربية . والحفاظ على سلامتها .

وظل النحو على ما كان له من شأن إبان عظمة الدولة . فلم يتوقف في مسيرته . ولا غض منه أن تضعضعت الخلافة . وأصبحت الدولة مِزَقاً متناثرة . يقوم على كل مِزْقة دُويلة . بل لعله أن يكون كغيره من العلوم قد زاد خصباً ونماء . فقد كان بين أصحاب هذه الدويلات تنافس ، وفيهم طموح . كل يحاول أن يجتمع بحضرته من العلماء والشعراء مثل من كان منهم بحضرة الخلفاء وأكثر ممن بحضرة أقرانه من أصحاب الدويلات . فجعلوا يجتذبونهم . ويحببون إليهم المقام في

ظلالهم ، بما كانوا يجزلون لهم من الجوائز ، ويولونهم من التكرمة والإجلال ، لا فرق فيهم بين عربي وأعجمي .

فكان لهم ما أرادوا ، وقَصدَهم العلماء والشعراء ، يؤلف العلماء لهم الكتب ، وينظم الشعراء لهم المدائح : فهذا أبو على الفارسي كان عند سيف الدولة الحمداني ، ثم استدعاه عضد الدولة بن بويه ليؤدب أولاد أخيه ، فمضى إليه أبو على ، وألف له كتاب الإيضاح ، فعدّه قصيراً ، وكانت له مع أبي على مجالس ومساءلات في النحو[١] .

وولّت الدولة الفاطمية ابن بابشاذ ، ثم ابن بَرّى أمر ديوان الإنشاء لنظر ما يصدر عنه من رسائل ، وإصلاح ما عسى أن يشوبها من أخطاء[٢] ، ووفد تاج الدين الكِندى على فَروخشاه ابن أخى صلاح الدين في دمشق ، فأكرم وفادته واستوزره ، وقرأ عليه المعظم عيسى الأيوبي كتاب سيبويه وشرح الإيضاح[٣] . ووفد ابن الحاجب على الملك الناصر داود بالكرك ، فأعظم قدره وقرأ النحو عليه[٤] وأهدى الغورى إلى السيوطى خَصيًّا وألف دينار فردّ الألف . وأخذ الخصى وأعتقه . وجعله خادماً في الحجرة النبوية[٥] .

---

(١) بغية الوعاة : ١/٤٤٦ .

(٢) المصدر السابق : ٢/١٧ ، ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ١/٥٧٠ .

(٤) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية : ٢٠٧ .

(٥) تاريخ الجبرتي : ١/٢٢٦ .

وكثير من الناس يمقتون النحو ، لكثرة الخلاف وتشابك الآراء فيه . ولا يد لأحد فى هذا ، فهو من عمل الظروف والأحوال . لقد تداول العلماء النحو يوسعونه دراسة وبحثاً على توالى العصور . وكثير من شواهده تتعدد رواياته ، والنحويون كغيرهم تتفاوت حظوظهم من العلم ، وتتفاوت درجاتهم فى التذوق والفهم .

ولم يفت النحاة آخر الأمر أن ييسروا النحو على طالبيه . فتناولوه بالنظم والاختصار ، وأشهر منظوماته ألفية ابن معط وألفية ابن مالك . ولا خلاف أن الكلام المنظوم أسهل حفظاً وأبقى فى الذهن أثراً . على أن آراء النحاة فى كثرتها وتخالف مذاهبها إن تكن ترهق المتعلمين فى درس النحو — فإن فيها عوناً محموداً للغويين الذين يرقبون اللغة المعاصرة فى تطورها واستحداث أساليب وألفاظ فيها . فليس يعدمهم أن يقفوا منها على رخصة ، أو يهتدوا بها إلى وجه يقبل عثارها ، ويجيز استعمالها فى فصيح الكلام . ومن النحاة من اتخذ النظم أداة لإلغاز بعض مسائل النحو . واشتهر من هؤلاء السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣[١] . والدماميني المتوفى سنة ٨٣٧[٢] . وهو نوع من المهارة الذهنية لا قيمة له ولا جدوى منه .

---

(١) بغية الوعاة : ١٩٢/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٦/١ .

النحاة في المجتمع

ما من أحد يمارس عملاً حتى يُعرف به ، ويُنسب إليه — إلا خلف فيه أثراً متميزاً . وقد أورث النحو أصحابه الأولين غَيرة على اللغة ، وجرأة على نقدِ المخطئين فيها . فضاق بهم خلق كثير .

قال الأخفش : كان أمير البصرة يقرأ قوله تعالى في سورة الأحزاب من آية ٥٦ : (إنّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبي) بالرفع ، فمضيت إليه ناصحاً ، فانتهرني ، وتوعّدني ، وقال : تلحّنون أمراءكم ؟[١] وكان الشعراء أشد الناس سخطاً عليهم لذلك ، فهجوهم ، وسخروا منهم .

ومن النحاة من كان يتقعر في كلامه ، كأبي علقمة النحوي ، فقد رأى عبداً حبشياً يضرب الأرض بآخر صَقَلبيّ . ويُدخل ركبتيه في بطنه ، فلما أُدخل للشهادة قال : رأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فحَطّأه على فدْفَدٍ ، ثم ضفطة بِرَضْفَتيه ، فلم يفهم الأمير كلامه وضاق به فحسر عن رأسه ، وقال للصقلبي : شُجّني خمساً . وأعفني من شهادة هذا[٢] .

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٤٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢ : ١٣٩ .

على أنه كان من النحاة ظرفاء ، منهم سعد بن شدّاد ، إذ حضر مجلس زياد ، وقد ترافع إليه بنو راسب والطُّفَاوة فى مولود . فقال سعد : أيها الأمير ! يلقى المولود فى الماء ؛ فإن رسب فهو من راسب ، وإن طفا فهو من طُفَاوة ، فأخذ زياد نعله ، وقام ضاحكاً[١] . وقال محمد بن موسى الدوالى :

وقائلةٍ : أراك بغير مال ... وأنت مهذّب علَم إمام
فقلت : لأن لاماً عكس مال ... وما دخَلَت على الأعلام لام[٢]

وكان النحاة فى رزقهم ، وأحوال معيشتهم ، وسيرتهم فى الناس كسائر الطوائف ، فكان الكسائى والفراء من مؤدبى الأمراء وأبناء الكبراء . وكان ثعلب يقتضى كل شهر ألف درهم يجريها عليه محمد ابن عبد الله بن طاهر ، وكان مع ذلك حريصاً مقتّرا[٣] .

وكان المبرّد يعلم الزجّاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً[٤] . وكان ابن الدهان من أئمة النحو ، وكانت له مشاركة فى الفقه والأصول ، وكان مع ذلك شديد الفقر ، يجلس فى الحلقة وعليه ثوب لا يكاد يستره[٧] . وكان السيرافى لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠ .
(٢) المصدر السابق : ١ : ٢٥٢ .
(٣) طبقات النحويين : ١٥٥ – ١٦٧ .
(٤) إنباه الرواة : ١ : ١٥٩ .
(٥) بغية الوعاة : ١ : ٥٢٣ .

مجلس التدريس فى كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مئونته [١] .

وطلب القائم بأمر الله محمد بن الوراق ليعلم أولاده ، وكان ضَرِيراً . فلما وصل إلى باب حجرة الخليفة ، قال له الخادم : وصَلْت ، فقبل الأرض ، فلم يفعل وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وجلس . فقال القائم : وعليك السلام يا أبا الحسن ، أُدْن منّى ، فدنا ، فسأله عن مسائل أجاب عنها [٢] .

وكان عبد الله بن الخشاب يلعب بالشطرنج مع العوام على قَارعة الطريق ، ويقف فى الشوارع على حلق المشَعْوذين ، واللاعبين بالقرود والدِّببة . وكان إذا أراد شراء كتاب غافل الناس ، وقطع منه ورقة ، ليأخذه بثمن بخس [٣] !

وليس كل ما ترك النحاة من النحو هو هذا المدون فى كتبه أبواباً وفصولاً ، ولكنهم تركوا قدراً صالحاً من المنظرات فيه ، تعد دروساً عالية فى المساجلة والتطبيق . وأشهرها مناظرة سيبويه والكسائى : فقد جاء سيبويه الكوفة ، لا يصحبه أحد من شعيته ، ليناظر الكسائى فى وطنه ، وبين تلاميذه ومريديه .

---

(١) إنباه الرواة : ١ : ٣١٣ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٢٥٥ .

(٣) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠

والتأم الجمع في مجلس يحيى البرمكي ، فقال الكسائي لسيبويه : تسألني أو أسألك ؟ قال سيبويه : بل تسألني أنت . قال الكسائي : كيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو هو إياها ؟ قال سيبويه : فإذا هو هي ، ولا يجوز : هو إياها . قال الكسائي : يجوز الوجهان . فاحتكموا إلى مَن بباب يحيى من العرب . فوافقوا الكسائي[1] ، فاستكان سيبويه . وانصرف مهزوماً .

ويَرى كثير من النحاة أن العصبية تدخلت في المناظرة ، على نحو مّا . ولا أراه بعيداً ، فالكسائي وثيق الصلة بكبار الدولة ، وهو بعد إمام نُحاة الكوفة بلا خوف .

وبعد ، فقد صنع النحاة للعربية أعظم ما يستطيع البشر أن يصنعوا . ويرحم الله أبا العلاء المعري إذ يقول : عن ثلاثة من كبرائهم :

تَوَلَّى سيبويه وسجّاش سَيْب من الأيام ، فاختلّ الخليل
ويونسُ أوحشت منه المغاني ودونَ مصابه الخطبُ الجليل
أتت على المرن لنا بكلامهم من اللفظ — الصحيحُ ولا العليل
ولو أنّ الكلام يحس شيئاً لكان له وراءهم أليل[2]

---

(١) انظر مثلا وفيات الأعيان : ٢ : ١٣٤ ، والمغني : ١ : ٧٤ .

(٢) اللزوميات : ٢ : ١٥٧ ، الأليل : الصراخ عند المصيبة .

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٢٨٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٣٤ - ٠

١/٧٨/٢٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)